الوصف والغزل

في شعر شوقي (١)

ولدت دنيانا من سحر خالد ، وفتنة لا تنفد ، فعشقها الناس على العصور ، وتعلقوا بها تقديساً وإكباراً ، وهتفوا باسمها سرًّا وجهاراً . استبدت بعقول الفلاسفة والمفكرين وعبثت بقلوب الشعراء ، فحملوا قيثاراتهم يغنون على أوتارها اناشيدهم كترانيم تتصاعد عبر التاريخ شذى يعطر الكون ، وموسيقا تسحر الآذان ، فكأنها جوقات من لغات تتآلف بالسحر والإلهام ، وتتحد بالخلود والعبقرية لأنها لغات القلوب ، نبعت من اللهجات واجتمعت على صلوات .

وهذه اللغات العالمية تجمع الشعراء من كلّ حدب وصوب ، في ذرى (أوليمب) الشعر حيث تتلاقى أرواحهم وتتحدث ، في جوّ عطر مسحور ، ثم تعود الى الأرض لتحمل من أجوائها أناشيد علوية ، تفهمها حيناً على وجهها وحيناً آخر على وجه مختلف ، فتتباين نظراتنا ومقاييسنا في الإحساس بها وفي تذوقها ، ومن هنا جاء الاختلاف بين النقاد ، فليس للشعر العالمي تعريفات أو موازين يقاس بها الشعر ، كتعريفات الأشياء الجامدة الملموسة أو موازين الآلات الموسيقية .

وقد اجتمع في رحاب الشعر العالمي عرب وعجم ، مشارقة ومغاربة ، قدماء ومحدثون ، لأن الشعر يعلو على الأجناس والعروق ، والأوطان والأزمان ، واشتركت بذلك أمتنا منذ قرون على ألسنة النوابغ الخالدين ، ودوّت أغانينا في تقديس الطبيعة الفاتنة ووصف المرأة الجميلة فخلف أجدادنا ألواحاً خالدة في الطبيعة الميتة والطبيعة الحيّة ، سمّاها النقاد وصفاً وسموها غزلاً ، ولكنها

---

(١) الكلمة التي ألقيت في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في واقع الأمر الى باب واحد يفد إلى تقديس الجمال أنّى وجد وتصيّده أنى كان .

وهذه الألواح العربية تشير إلى أن العرب فتحوا قلوبهم للطبيعة والمرأة وتملّوا منها جميعاً ، كما فعل شعراء الأمم ، فأرسلوا الدموع في بكاء الديار والأحبة ، وسكبوا نفوسهم على ترائب الحجر وترائب الغيد ، وخفقت قلوبهم لنسائهم الغدران ولقاء الحسان ، فكان منهم ديوان ضخم موسيقي جميل ، منسجم في معناه ، متقارب في مبناه ، كأنه خرج من عشيرة واحدة وقبيلة واحدة على تعدد أقطارنا وسعة أمصارنا ووفرة عصورنا .

وهذا الديوان في الوصف والغزل واضح الملامح ، بسيط ليس فيه تعقيد أو التواء أو تفلسف أو تشكّك ، تسيل فيه نفوس المحبين جزعاً للبعد وحرقة للوجد ، وحذراً من الحسّاد ، وخوفاً من الوشاة ، وإعجاباً بالروعة ، ونشوة بالدهشة ، واكباراً للنقش والفن ؛ يصور القرون الأولى في جمال الحب وبساطة الرسم ، على خطوط لا ظلال لها في أكثر الأحيان ، وسطور ناصعة لا غموض وراءها ، لأنه غناء وإنشاد ، والفن يفسده التعقيد والشرح والتفلسف .

ولعل شوقياً فُتن مبكراً بجمال الشعر وجلاله ، فعكف على قيثارته بأوتار ضعيفة أول الأمر ، عكوف العاشق العابد ، يتمنى أن يصبح في الشعراء ، فقدّم قلبه قرباناً ، وصفح روحه على مذبح الشاعرية ، وراح ينشد ويترنم ، فيتعثر ويتعثر ، ثم ينهض ويستوي ، ثم يقف للفحول ، فيقع منه ديوان كبير فيه الرفيع والعادي ، كما في دواوين غيره من الفحول . فمن الخير أن يُنتقى وأن يُتنخل ، وأن نَستشهد بالخيّر منه في يوم ذكراه . فقد كسب العرب قانونياً طلّق الأحكام ، وترديد الدساتير والمواد ، ليدخل في ربوع الخيال ، ويعيش بين مرابع الجمال ، ويكون منه في الحب والوصف ما كان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد وهبه الله لساناً لافظاً ، وروحاً ملهمة ، فعاش بقلب كثير الخفوق ، وعينين حالمتين في رجرجة وفي حركة عجيبة ، وصدر عامر بالشعر يعج بما يحفظ ، ويثور بما يضطرم في نفسه ، حتى سالت في أحناء قلبه معاني القدماء مع المعاني الجديدة ، فأصبح كأنه صورة للجيل من الأدباء الذين عاصروه ، بل صورة للأدب الذي يعيش في أيامنا ، يتجاذبه تياران يتأرجح عليهما بين الشرق والغرب .

ولقد حاول شوقي أن ينطلق بالأدب العربي الى ميادين الشعر الغربي ، ووعد مخلصاً بأن ينقلنا إلى مرابعه ، ولكن الشعر العباسي كان يجذبه إلى أحضانه ويلفه بخياله ، فعاد به إلى تاريخ العرب وأمجادهم وصورهم أكثر الأحيان ، فكان لثقافته في الصبا والشباب على أيدي العباسيين أثر بعيد فيما نظم وفيما أبدع .

لذلك وقف أمام مشاهد الغرب كما وقف أمام مشاهد الشرق ينظر إلى القصور والأحجار والحدائق والأنهار ، والى السماء والماء ، بعينين يدفعهما الحنين أكثر ما يدفع الى الماضي العربي ، فيقفان عنده ، ويستعيدان صوره العزيزة الغالية ، سواء حين نظر شوقي الى تماثيل مصر وقصورها أو تماثيل الغرب في باريس ومدريد واستانبول . حتى قيل : إنه لم يفد كثيراً من مقامه بين الشعراء الغربيين في قلب الحي اللاتيني إلا كما يفيد المتنقل في قطار مربع من مشاهد الطريق .

ونحن حين نسعى إلى جمع ألواحه في الغزل والوصف واختيارها من متحفه الواسع ، نقع على أناشيده في أمنا الأرض [1] ، وفي بناتها الحسان العبقات قد انتثرت في سماء ديوانه كالنجوم . وصوره الوصفية كثيرة في هذا الديوان ، لأنه كان في أكثر شعره يركب على عبارة مجنحة الخيال وصفية التركيب ضخمة الصورة .

ولهذا سنتخذ بعض المقاطع الخالصة للوصف والغزل شواهد للحديث عن

(١) انظر « لزوم ما لا يلزم » لأبي العلاء المعري ، في صدر الكتاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

توفيقه في هذين البابين ، نحشدها بائقة لذكراه ، بعد أن قضى الجسد ، ومات الحسد ، ودُفن الحقد ، وأصبحت روحه في الخالدين ، ترفرف في مرابع الشعر العربي وقممه ، مع رصيفاتها من عهد الوليد وسليمان بدمشق ، والرشيد والمأمون ببغداد ، وآل حمدان ومرداس في حلب ، وملوك الطوائف في الأندلس . والغربيون يقولون : يحسن أن ينبغ في القطر شاعر ولو تأخر به الزمان فيحسب من خيراته ويعدّ من حسناته يوم الحساب .

ولعلكم تأذنون في رحلة قصيرة الى متحف شوقي ، نستعرض فيها أجنحة الوصف ، فننظر الى ألواحه في القصور والأحجار قبل كل شيء ، لنرى كيف صنع وكيف رسم . فقد وقف أمام أبي الهول يتغنّى [1] :

أبا الهول ويحك لا يستقلّ مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزّأت دهراً بديك الصباح [2] فنقّر عينيك فيما نقر
أسالَ البياضَ وسلّ السوادَ وأوغل منقارَه في الحُفَر
فعدتَ كأنك ذو المحبسيـ ـنِ قطيعَ القيام سليب البصر
كأنّ الرمال على جانبيـ ـك وبين يديك ذنوبُ البشر
كأنكَ فيها لواءُ القضا ء على الأرض أو ديدبانُ القَدَر

فرسم أبا الهول في قلب الصحراء الصامتة على مقربة من أبواب الأهرام ، رابضاً يحرس الكنز المخبوء والأجساد الغالية ، ناشب الظفر في هدوء المتوثب ، والقرون تمر ، والعوادي تجري ، والحروب تنشب حوله ، فتجدع أنفه وتسلب عينيه ، ويغدو قطيع القيام ، قعيداً ، لا يريم يسمع اللّغط الدائر حوله في

(١) الشوقيات ١ / ١٥٥ .
(٢) ديك الصباح يريد به الزمن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لفات ما عرفها حين كان أصحابه ، واستبيح حماه وكان السيّد المهيب فأصبح منالاً لكلّ زائر .

فاتخذ منه العبرةَ الجميلة والصورة البديعة ، وكان يستطيع ، إلى ذلك ، أن يرسم الأسد وجثومه ، وأن يصف الروعة الهائلة التي يلقاها زائر أبي الهول ، وأن يأسى له ، وأن يرثي لحاله وقد شدّ إلى الصخر أسطورة خالدة على الأيام . فلما عاد اليه بالذكرى وهو في الأندلس صنع لوحةً أخرى لهذا التمثال يقول فيها [1] :

وهينُ الرمال أفطسُ الاّ أنّه صنع جنة غير فطس

تتجلّى حقيقة الناس فيـه سبع الخلق في أسارير إنسي

رَكِبتْ صُيّدُ المقادير عينيـه لنقْد ومخلبيه لفَرْس

فأكمل في هذه اللوحة ما نقص في الأولى ، ورسم الأنف وذكر المخلبين ، وقربنا من الأسد ، ثم عاد ليقول مع البحتري إنه صنع جنة لهوله وعظمته وبارع صنعه ، كما قال العرب حين أذهلهم البنيان وأدهشهم أن يكون من صنع الإنسان . وليس من سبيل الى لوم شوقي ، فقد أراد أن يقف للقدماء وأن يعارضهم ، وأن يعدّ فيهم ، وليس ذلك بالقليل ولا الهيّن في مثل عصره .

فاذا وقف أمام حمراء الأندلس ، لبس ثوب البحتري حيال إيوان كسرى ، فاتّعظ كذلك بالتاريخ ، وتأسّى للأحداث ، وبكى الماضين ، فرسم الأعمدة المستوية كألفات الوزير في طرس ، وقاعة السباع خالية إلاّ من أشبال تجمعت حول فوارة جميلة ترسل الماء حبيا ، تنشد على الزمان حزينة كئيبة فيقول [2] :

---

(١) الشوقيات ٢ / ٥٦ .

(٢) الشوقيات ٢ / ٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وترى مجلسَ السباع خلاءً ... مقفر القاع من ظباء وخُنس
مَرمرٌ قامتِ الأسودُ عليه ... كَلّةَ الظُّفْر لينات المَجَسِّ
تنثر الماء في الحِياض جماناً ... يتنزّى على ترائبَ مُلْسِ

وهذا جانب واحد من الصورة ، لم يعرض فيها شوقي ما قام من نقوش على الجدران ، وما اختلف الى الأعمدة من جمال اللون وتعاقب النور والظل ، وما سال تحتها من ماء ، وما حفَّها من خرير وهمس ، فكأنه لم يستوح الأندلسيات وقد رنمت أشباحهن في كل زاوية ، وتصاعد غناؤهن بموشحات تسمعه الآذان عبر التاريخ . ولكن الشاعر - كما نرى بعد قليل - لا يرسم كل شيء ، وإنما يركز عدسته على أمر واحد دون سائر الأمور ، فكأنه يرسم الأشياء من وجه واحد مسطحة - كما يقول المهندسون - .

واذا دلف الى «أسوان» ووقف أمام «قصر أنس الوجود» ، ترك في لوحته عنه ما أدهشه من جمال وجلال فقال(١) :

أيها المنتحي بأسوان داراً ... كالثريّا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى ... ممسكاً بعضُها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضاً ... سابحات به وأبدينَ بضّا
مشرفات على الزّوال وكانت ... مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت ... وشباب الفنون مازالَ غضّا
رب نقشٍ كأنما نفض الصا ... نعُ منه اليدين بالأمس نَفْضا

(١) الشوقيات ٢ / ٦٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي صورة جميلة بارعة تصف الأحجار تتماسك من الذعر خوفاً من الغرق ، وقد أشرفت على الزوال ، فكأنها عذارى أخفين بضّا وأظهرن بضّا . ثم عرض للفن فرأى أنه لا يشيب مع الزمان ولا يهرم مع الدهر ، ومهارة الصانع ما تزال تبهر العين على تقدم الفنون ، وتستبد بالاكبار والدهشة . وهذه اللوحة من أجمل ما يزين متحف شوقي في الوصف ، بل هي آية أوصافه في الحجر والنحت ، تشير إلى حبّه العظيم وإخلاصه لهذه التربة التي حَضنت أباه ورعت مجده وحفظت بيته ، فهو يحتفي بتاريخها ويقول :

وأنا المحتفي بتاريخ مصر من يَصُنْ مجدَ قومه صانَ عرضا

فصان التاريخ بهذه الألواح وخلّد الأمجاد بهذه الأوصاف ، واقتعد الى جانب القدماء من وصافينا مكاناً لا يقلّ عنهم ولا يزل عن عروشهم ، في بيان يختلط ببيانهم ، وأساليب تمتزج بأساليبهم فكأنه انسلّ عبر الزمان فاستعار ريشتهم وفنونهم ليرسم ما لم يرسموا .

ولعلكم توازنون بعد هذا بين ألواحه في القصور والأحجار وبين ألواح القدماء لتجدوا مبلغ التوفيق عنده ، مما لا نستطيعه في هذه الدقائق ، لأننا نحب أن نطوف بكم جناحاً آخر من متحف شوقي في وصف الآلات ، فقد رسمها كذلك كما رسم الحجر ، وخصّها بشعره فجعل للمراكب البخارية والغواصات والطائرات ألواحاً تنطلق مع أوصاف الشعر الحديث خطى غير قليلة ، ولكنها تجمع في برديها صوراً موروثة للحيوان ، برع في نقلها حين وصف الطائرة فقال [1] :

مركب لو سلف الدهر به كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طير ونصف بشر يالها إحدى أعاجيب القضاء

(١) الشوقيات ٢ / ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مسرجٌ في كلّ حين ملجم كامل العدّة مرموق الرُّواء
كبساط الريح في القدرة أو هدهد السيرة في صدق البلاء

فقلّب على الطائرة الصور التي تخطر على البال ، فهي مركب نصفه طير ونصفه بشر ، وهي فرس ملجم ، بل إنها بساط الريح أو الهدهد المعروف أو الحوت في الماء أو الكوكب المذنب أو الطاوس يجر ذيله على الأرض تيهاً وخيلاء . والطائرة معجزة العصر ، فأين معجزة الشعر ، تصفها بأكثر مما وصف ! انّ « بساط الريح » راجت وأعجبت فاستعارها فوزي المعلوف شعاراً لملحمته وهو في المهجر . والغربيون لا يجدون غير الطير شبيهاً للطائرة ، بل يردّون اختراعها الى الطيور الكاسرة حين تحلّق باسطة في السماء جناحين من حديد .

وبرع حين رسم الغواصة [1] ، فشبهها بالحوت تدبّ تحت الموج ترى ولا تُرى ، وتبث الموت في كلّ مكان ، وهي خئون ملعّنة لأنها تزرع الشرّ والفناء . ونحن حتى الساعة لا نجد من الصور ما نسلمه الى أبنائنا في الاستظهار غير أبيات شوقي ، فهي في موسيقا وبساطة ويسر بحيث تدخل على الآذان بغير استئذان ـ كما يقول القدماء ـ ، وهذا كسبٌ للجيل على اختلاف أسنانه ، ننتظر من شعرائنا المجددين يداً يضيفونها إلى أياديه في غنى المتحف الأدبي للعرب .

* * *

واذا ما انتهينا من جناح الحجر والحديد في ألواحه انقلبنا الى جناح الطبيعة في رياضها وأنهارها وأشجارها ، لنرى الى صوره ورسومه عنها ، فقد خلّف شوقي ألواناً بديعة كما خلّف القدماء ، فرسم الماء والسماء وما بينهما ، ولبث يتصيّد الجمال في كلّ درب ، فلننظر الى قوله في نهار جميل [2] :

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٣ .
(٢) الشوقيات ٢ / ٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى حلقت بجناح
والشمس أبهى من عروس برقعت يوم الزفاف بمسجد وضاح
والماء بالوادي يخال مسارباً من زئبق أو ملقيات صفاح (١)

رسم فيه الفضاء والسماء والشمس ثم عرض للسواقي فقال :

وجرت سواق كالنوادب بالقرى وعن الشجيّ بأنة ونواح
الشاكياتُ وما عرفن صبابة الباكيات بمدمع سحّاح
من كلّ بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح (٢)
تبكي اذا ونيتْ وتضحك إن هفت كالعين بين تنشّط ورَزَاح (٣)
هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بنيره الفداح

وهذا شعر جميل يذكرنا بأخيه في العراق والشام ، لا يكاد ينخفض عنه في بيان ورقة وعذوبة وتوفيق ، أكثرنا من روايته عامدين وأفضنا في أبياته لنشهد السامعين معنا أن الشاعر جرى في ميادين الشعر الفحل ، واستطاع على تأخر الزمان ، وسكوت الحناجر المبدعة ، وقلق الشعر أن يلحق بركب الفحول من شعرائنا ، وأن يرفع لمصر راية عالية بين شعراء العرب ، وأن يدفع إلى تكريمه وفاء لشاعريته ، فهذا الجديد يصبح في التراث العظيم إذا تقلب الزمان ، وافتقد الناس الشعر الجميل الجزل .

---

(١) الصفاح : عرض السيف .
(٢) ملواح : سريع العطش .
(٣) رزاح : رزحت الناقة ألقت نفسها إعياء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالمدهش في شوقي - كما قلنا - أنه نجح في قطر غلب عليه الركود ، وفي مصر صمت قروناً في الشعر ، فلم يلهم ولم يبدع ، وانما روّج لنوابغ الشعراء من جيرانه ، فلما غنى شوقي والصق بالفحول ضحكت في قوافيه أماني الأدباء ، وتهلّلت في أوصافه متانة الشعر ، فأعاد للناس شراباً معتّقاً في الوصف وفي الغزل ، فتوجهت الى مصر أنظار العرب وأصغت اليها أفئدتهم وقدمت اليها وفودهم تبارك القبيلة التي نبغ فيها ، وتهنئ العشيرة التي لمع في ربوعها ، كما كان العرب يهنئون في عكاظ سواء بسواء .

وقد رأينا أنه استعرض صور القدماء ، وطمع أن يكون أميراً في الشعراء ، وأن يصبح لعصره كما كان جرير والبحتري وأبو نواس لعصورهم ، فلم يضره عرقه ، ولم يفسده القانون ، ولم يحبسه زمانه وحساده ونقاده عن امتلاك مكان رحب في جنان الخلود ، فكسب المعركة سواء أوقع في التقليد أم انفرد في الإبداع ، وذلك لأنه شقّ الطريق ، ومهد لشعراء قومه سبيل الابتكار بعده ، فلم نسمع بمن ينسينا ذكره ، حتى لكأن الشواغل صرفت شبابنا عن هذا اللون من متع الشعر ولذائذه المترفة الى شعر الكفاح والنضال ، فكأنهم آمنوا بالالتزام وحده ، فهبوا إلى ينبوعه ينهلون منه لنسمع منهم بعد قليل ، وإنّا لغنائهم لمنتظرون .

وسيبقى شوقي وتبقى هذه القصائد وأمثالها منضودة كبدائع الألواح في متحف الشعر العربي ، وفي مكان رحب منه هو « جناح شوقي » اذا صحّ التعبير ، يمرّ به الأدباء معجبين يستعرضون الجمال والجلال . ويقرءون شعره مثلاً في الربيع فيجدون أن الطبيعة هي الطبيعة وأن الغيم هو الغيم ، نرسمه كالنعام حين نستسلم لأحلام الطفولة ، ونشبه الشمس بمسجد وضاح أو كعروس يوم الزفاف ، ونجد السواقي نوادب تشكو خلودها على الزمان ، تدور وتدور فما تعرف الهدوء والقرار ؛ تغرف الماء وتسكبه ، وما تدري ما تفعل ، لأنها كالعبيد في العصور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الوسطى أو كالأسرى في وحول القولغا القيصرية ، تغني باكية حظها ، بل هي كهذا الحيوان معصب العينين ينوء بنيره الثقيل .

ويقرأون شعره كذلك في وصف القمر ، وقد رسمه متهللاً في الماء قد بدا نصفه ، وأسفر عن قفل ماس في سوار نضار ، ورسم الفلك على الماء يتبعها ذيل من الأنوار تخطر في لجين مائج أو عسجد زخار .

فاذا وقفنا أمام وصفه للنيل ، رأينا الألوان والأصباغ حين يسود النهر أو يخضر ، فيحوك بردة على الضفتين لا تخلق على الأيام لأنه شريان مصر ، وغذاء أرضها وأهلها ، وهبة الخير والنماء التي لا تعدلها هبة[1] :

ومن السماء نزلتَ أم فجّرتَ من عُليا الجنان جداولاً تترقرقُ
وبأي عين أم بأية مزنة أم أي طوفان تفيض وتفهق

فاذا حفظ المصريون يد النيل ، فهم يحفظون يد شوقي ويردّدون شعره ، وينقشونه في قاعاتهم شارة على الوفاء لشاعر النيل ، وينشدون أبياته كما ينشد الغربيون أغانيهم في الدانوب الأزرق وفي القولغا وغيرهما ، فالنهر ماء الحياة ودفقة العزة وشراب الخصب ونعمة الدهر .

ونحن في الشام نحفظ لشوقي يده علينا حين خصّنا بألواح في هذا المتحف الجميل ، فرسم من اقليمنا ما وصف ، وخلّد من آثارنا ما خلّد ، فسكب الجمال في قوافيه وأراق في أبياته من مسجدنا ومآذننا ما أراق . فلما دخل دمشق عاصمة العروبة ومسرح الوليد ومروان ، هبت دمشق لاستقباله ، وجرى « بردى » يصفق للقائه ، فكأنه رضوان يستقبل اليوم شاعرنا في جنان الخلد ، والشمس فوق لجين الماء كأنها عقيان ، وشجر الحَور في قرية دمر أو في

(١) الشوقيات ٢ / ٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

«الهامة» كالحُور في الجنان قد كشفت عن ساقها وخفَّت ترقصُ لمقدمه ، ولعلَّ شوقي قد عرف أن النهر صغير قليل ، ولكنه نشيط جميل ، يكاد يكون صورة للشعب ، يضجّ بالحركة ويثور بالسعي ، ويتعلق بالحرية والنفع ، يندفع على صغره كما يندفع النيل والفرات ودجلة ، ليغذي العرب بآياته ويغمهم بخصبه ؛ فنحن نتغنى بقوله (١) :

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنته ... دمشقُ رَوْحٌ وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبّت خمائلها ... الأرضُ دارٌ لها الفيحاءُ بستان

جرى وصفّق يلقانا بها «بردى» ... كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيهـا زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عِقْيَانُ

والحور في «دمر» أوحول «هامتها» ... حُور كواشف عن ساق وولدان

لأننا لم نقرأ لنهر دمشق وصفاً كوصف شوقي منذ حسَّان بن ثابت فنعترف لذلك بيده على أبنائنا منذ أرسل فينا هذه الأنغام العلوية .

والألواح في المتحف ما تزال كثيرة ، في الربيع والشرب والشاربين ، تشبه ما في ديواننا من البحتري وابن المعتز وأبي نواس ، بل تزيد عليها فتثير البلابل وتحرك الورق كأنها جوقة من راهبات في صحن كنيسة يوم عيد الفصح ، وقد انتشر البخور وعلا النشيد الجميل . وأحمد شوقي يستعير صوره من الاديان جميعا ، وفيها الدين المسيحي ، كما فعل الحمدانيون . ويعدّد النبات وألوانه والزهر وأصنافه كما عدّدها أولئك في روضياتهم ، فيرسم الخمائل مرحة ، والنرجس والأقاح ، والمنثور والورد والزهر ، كأنها في موكب جميل تتهادى في أوضاعها ، هذه خفضت رأسها ، وتلك تعالت شامخة ، وثالثة ضحكت مرحة ،

(١) الشوقيات ٢ / ١٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه عبثت في العرس الحافل ، فكأنه يرسم عرس الطبيعة ، ويحرك الزهر على المسرح كما يحرك الفنانون دماهم بخيوط خفية يرقصونها وينطقونها بأجمل الحديث في مسارح باريس وموسكو .

* * *

وهذه الألواح خالية في أكثرها من التوقيت والتأريخ ، لا تدلنا على صبى أو كهولة ، فلن نستطيع أن نصف منها أطواره ، ولن نصور تقلبه وتقدمه في شعره . ولعلها ليست أجمل ما قال ، ولكنها في رأينا من أجمل ما يقال ، بل اننا نراه يحاول أن ينطقها كما فعل ده‌فنشي في لوحته عن موسى الكليم صلوات الله عليه ، ولكنه عجز في باب الألوان والأصباغ والحركة فنظر اليها كما ينظر الفوتوغراف من وجه واحد ـ كما قلنا ـ .

وقد نظر إليها نقادنا المعاصرون على اختلاف غير يسير في الرأي فانتقصها بعضٌ على أنها تقليد ونقل ، وأكبرها بعض على أنها آية الآيات . فقال الرافعي : «ان شوقي صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه» . ونقدها العقاد وعرّف التشبيه : «أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك» . ورأى غيرهما أن الشاعر أخفق في مجاراة عصره فاستعار آلات القدماء وأوصافهم .

ونحن لا نحمّل شوقي معرة تقصيره في اللحاق بشعراء الغرب في العصر الحديث ، وقد عاش بينهم في باريس وغير باريس ، فلم يرسم أثر المشاهد في نفسه ولم يحاول أن يطبعها في نفوس قرائه ، ولم يجعل كالشاعر لامارتين من الخليج ساعدين يضمان الماء كما يضم العاشق حبيبه في نفور حيناً وفي استسلام أحياناً . وذلك لأن شاعرنا كان بديم النظر الى الشعر العربي القديم أكثر ما يديم ويسعى في اللحاق به وخاصة في الوصف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلما أراد أن يصف دقات قلبه من جمال النساء بعدما وصف من جمال الأرض والسماء وقف أول الأمر عند غزل القدماء ، وتعلّق بصور القرنين الثالث والرابع ، ولاذ حيناً بأسباب المدرسة العذرية ، وأخذ أحياناً بالغزل الصناعي ، ولكنه كان في ذلك كله يجاري الفحول من الغزلين القدماء ، فلما أوغل في الفن استطاع أن يولد وأن يبتكر ، فكانت منه تعابير وصور بلغت مبلغاً عظيماً من الصيغة والموسيقا ، فكان شعره في هذا الباب موضع الغناء في عصرنا لحن كلّه أو كاد ، ودار على الأسماع لرقته وعذوبته .

أما أنه وقف عند غزل القدماء أول الأمر ، فهو واضح في ألفاظه يكرر ذكر البان والعلم والريم والمها والمرض والبعاد والقتل والفتك ، في مطالع قصائده وفي المقطعات الخاصة بالنسيب والتشبيب . فوصف ماء الخد يشفّ عن اللهب ، والشادن في غلائل قشب ، قد قرّ منه النهد واضطرب ، فاذا مشى أخجل القضب ، بين عينيه والمها نسب ، يميس قده ، ويسفر عن البدر وجهه ، ويقتل بجفنه وفيه سقم ، ويدمي عشاقه بالسيف والسحر والطلى ، يرمي الشباك ويصيد العشاق يبسم عن نضيد ، ويرنو بطرف أحور . وكان في هذا مقلّداً من غير شك حتى اذا انطلق الى باريس وغير باريس راح ينشد شعراً جميلاً ينبعث من قرارة نفسه ، فيقول[1] :

نظرةٌ فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء

يوم كنا ولا تسل كيف كنا ... نتهادى من الهوى ما نشاء

وعلينا من العفاف رقيب ... تعبت في مراسه الأهواء

فصوّر الحب جنيناً منذ ولادته حتى بلغ أشده ، وأثمر الثمر المرجو ، فكان

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقاء وما وراء اللقاء . وهو في غزله عفيف حيناً ، وغير عفيف أحياناً ، أمين على الحب وخئون في العشق ، يقسم ويقسم ، ويجعل للحبيب من قلبه معبداً وسفحاً وملعباً ومنهلاً عذباً ومرعىً طيباً .

وكم تغنينا في شبابنا بألحان شعره في قصيدته السائرة التي وصف فيها لقاء الحبيب وما وقع بينه وبينه فقال [1] :

لم أدر ماطيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك
ودخلت في ليلين فرعك والدجى ولثمت كالصبح المنور فاك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد جمع الزمان فكان يوم رضاك

وأعجبنا آنذاك بلغة الكلام حين تعطلت ، وذهبت الكلمة فينا مثلاً ، وردّدناها في سن كانت ترقص لهذه المعاني والصيغ ، ولعلها تبعث فينا اليوم ما يبعث الناقوس في النسّاك ـ كما قال شوقي ـ ولكنها لم تفقد عذوبتها في أفواهنا ، ورقتها في أسماعنا ، لأنها تصوّر الغزل الجميل وقد سكت الكونُ وتكلّمت الأنفاسُ في الصدور ، وتقطعت الحسرات بالقبل ، وبرقت العيون في الظلام ، وازداد حديث القلوب كلما سادت العتمة ـ كما يقول بول جيرالدي ـ في باريسياته ، فكيف نصدّق الخبثاء من النقاد حين يرمون شوقي بالبعد عن هذا ، ويرون أنه ما تكلّفه ولا سعى اليه . وكيف يستطيع شاعر لم يذق الجوى والألم أن يقول :

اذا طاف قلبي حولها جنّ شوقه كذلك يطفي الغلة المنهل العذب
يحنّ اذا شطّتْ ويصبو إذا دَنَتْ فياويح قلبي كم يحنّ وكم يصبو

(١) الشوقيات ٢ / ٢٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولو عرفوا أية حسناء سفح عليها حنينه وشكواه ، وأراق على نحرها دمعه وبكاه ، لآمنوا بما يقول ، ولكنّ شوقي سكت عن ذكرياته في هذا الباب فلم يحدّث عن باريس ومونبليه وغيرهما كما فعل غيره . وانما رأوا أن الرجل كان يتقمص ثياب الأبطال العشاق في مسرحياته ، فيفضي باسمهم ألم قلبه وجروح صدره وذكريات أيامه ، ويوفق في التعبير والتصوير حتى ليقع من ألسنتهم موقع الشقيق الرفيق ، فيختلط شعره بشعرهم ، ويصيح مع المجنون في صيغة واحدة :

مُنى النفس ليلى قربي فاك من فمي ... كما لفّ منقاريهما غردان

نذقْ قبلة لا يعرفُ البؤسَ بعدها ... ولا السقمَ روحانا ولا الجسدان

فكلُّ نعيم في الحياة وغبطة ... على شفتينا حين تلتقيان

ويخفقُ صدرانا خفوقاً كأنما ... مع القلب قلبٌ في الجوانح ثان

ولعلّ ليلى المجنون هي ليلى شوقي لقيها في الشرق أو الغرب ، فما نظن أنه خلا من حبّ عنيف فاتك ، لأن أشعاره تصور عاشقاً لقي الحب وخبر الفراق ، وأحسّ بهذا لكل جارحة من جوارحه كما أحسه العباسيون والأمويون قبلهم ، فاستطاع أن يقف لشعرهم لا عن تقليد بل عن إحساس وشعور وفهم وذوق ، وبرع في وصف الغرام في الصبا والشباب فرسم في المسرحية مشهداً رائعاً نظن أنه بلغ فيه الذروة تصويراً وتعبيراً حين قال :

هـذه الربوة كانت ملعباً ... لشبابينا وكانت مرتعا

كم بنينا من حَصاها أربعاً ... واثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تزل ليلى بعيني طفلة لم ترد عن أمس إلا أصبعا
قد يهون العمر إلا ساعة وتضيق الأرض إلا موضعا

وهذه الأبيات تقع من موسيقا الشعر الغزلي وروعته وجماله بحيث تشهد لشوقي ببراعة الغزل فهي تنضح بالحب البريء ، وتصف الهوى في أجمل صفحاته ، حين يرسم العاشق على الرمل ويخط على الماء ويبني على الهواء ، فتحمل الريح أحلامه وقصوره الى كل مهب وفي كل سبيل ، فاذا شبّ ذكر ما كان من الصبا في أسي جميل ولوعة صادقة ، وحرقة يعرفها المحبون ، لأنها صورة الحب في الإنسانية . وهذا هو الشعر الإنساني الذي وفق شوقي إلى رسمه وبلغ الغاية فيه فلم يصح مع « موسه » : أن الأماني لا تبنى على الرمال ولا تعتمد على الرياح .

والنقاد يرون أن شوقي لم يلح على الغزل إلحاحه على الأبواب الأخرى فلم يعالج منه لوصف حياته ومَن حوله ومَن عرفه ، ومَن أحبه ، ولذلك جاء قليلاً بالنسبة الى شعره في الألوان الأخرى ، ويرون أنه سكت لموقعه من السلطان والمجتمع ، ولو قد فعل لكان له في الغزل ديوان كبير ، ولكنه صرف أكثره الى المسرحية فوفق فيه وبرع به ، ورفع فيه لواء مصره وعصره .

على أننا نجد أنه صرّح بهذا الغزل حين تحمّل الى لبنان ، ووقع في « بكفيا » على صيد جميل ، فجرى وراءه وخادعه وخادعه حتى انتصر عليه ، ومشى الصيد اليه وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائله[1] :

قد جاء من سحر العيون فصادني وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرتُ به على حرم الهدى لابن البتول وللصلاة وهيته

(١) الشوقيات ٢ / ١٨٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكننا لا ندري بعد ذلك كم وهب وكم اصطاد ، وكم من الشباك ألقى وكم لم ؟ حتى إذا تعبت يداه ترك الشباك وألقى القيثار ، وعزف عن الغناء في الغزل ، وجلس يرقب الصيد والصيادين ويذكر أيامه الحلوة في بسمة راضية وعيشة هانية ، حتى دلف اليه الملاك بين سحر المناظر وعطر المفاتن ، فاحتمله الى جنان النعيم حيث الحور والولدان المخلدون ، قرير العين بما كسب للشعر العربي ، ناعم النفس بما وهب من صور وألوان ، عظيم الشهرة فيما خلد من وصف كان تاج شعره ، ومن غزل كان موضع الغناء في مطارح أنسنا ونجوى نفوسنا ، حلّق فيها كما حلق الفحول من قدمائنا فاستحق الإعجاب والتكريم والذكر العطر ، على مرّ الدهر وتقلّب الأجيال .

الدكتور سامي الدهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net